– قد همَّ بذلك قسطنطين بوغانات ثم أمسك؛ فقد جاءه الوعيد من ملك العرب أنه إن فعلها استباح العرب مثل ذلك في بلادهم، فلا يتركون لنا ثمَّة بَيعَة ولا صومعة إلا هدموها.

– ولكن ما ينالُنا من غارة هؤلاء الطُرَّاق أسوأ أثرًا فينا مما أوعد به ملكُ العرب، فقد انحسرت النصرانية عن بلاد العرب، فلم يبقَ ثَمَّةَ إلا فلولٌ لا تُساوِي ما نتعرَّض له من الشرِّ ببقاء ذلك القبر!

– أفلست تعلم يا لوكاس أن دفين ذلك القبر من أصحاب نبيِّهم، وأنَّ له عندهم مقامًا قد يحمل على الشر الفظيع أن يناله أحدٌ بمهانة!

– وأيُّ شرٍّ أفظع مما ينالنا منهم يا موريس، صائفين وشاتين؟

– أنت لا تعرف العربَ يا لوكاس.

– وتعرفهم أنت يا موريس؟

– قد عرفتُ من أخبارهم ما لو عرفتَه لكفَفْت!

– أتراهُم مَرَدَةً يقذفون من أفواههم اللهبَ المحرِق؟ ويُحرِّكُون العاصفة الجائحة؟ ويقتحمون الأسوار بغير أجنحة؟

– أراك تسخر يا لوكاس! فهل سمعت عن بشرٍ يُفطِرُ بحَمَل، ويتغدَّى بجَمَل، ويتفكَّهُ بمائة رُمَّانة، فإذا قام من قيلولته دعا بطعام العصر؟ …

– بل أنت الذي يسخر يا موريس!

– ذاك والله ملكهم الذي سيَّرَ إلينا هذه الجحافِل بقيادة أخيه![1]

– ما أحراهم بأن يأكلونا إذن؟

– إنهم لا يأكلون لحوم الموتى!

– يموتون إذن تحت أسوار القسطنطينية جُوعًا؛ فليس هنا ما يكفيهم من الطعام إذا أرادوا حصارَ المدينة.

– أرأيتَ الجاموس الأسوَد؟

– أيَّ جاموس؟

– نوع من الحيوان كالفِيَلَة، لا يقطع السكين في جلده، يطأُ بحافِر، وينطح بقرن، وينظر بعينين ليس فيهما بياض، وما يزال يجترُّ كالمِعْزَى …

[1] انظر الفصل الحادي عشر.